

مشروع رولان بارت السيميائي

بين مرحلتي البنيوية وما بعد-البنيوية: دراسة تحليلية

مراد الخطيبي*

ملخص:

يعتبر رولان بارت من أهم منظري السيميائيات التي تعرف بكونها دراسة العلامات. ويصنف بارت تارة بكونه بنيويا على خطى دوسوسير ويصنف تارة أخرى ما بعد بنيويا. والعلامة في هذا السياق تعني شيئا يؤدي إلى معنى سواء كان كلمة مكتوبة أو مسموعة وسواء أيضا كان رمزا أو صورة أو أسطورة. مساهمة بارت الفعالة في مجال السيميولوجيا تتمثل في تمكنه من إدراج هذا العلم في النقد الأدبي وأيضا في تحليل كل روافد الثقافات الشعبية والمهمشة وثقافات الآخر في إطار التواصل الثقافي الحقيقي مثل ملامسته لمواضيع الأكل والموضة والمصارعة والهايكو والزن وغيرها. وفق هذه الحقيقة تناولت هذه الورقة مشروع بارت السيميائي ما بين المرحلة البنيوية في إطار تأثره بلسانيات دوسوسير والمرحلة ما بعد-البنيوية عند إصداره لمؤلفه: "إمبراطورية العلامات" حيث سيتناول بارت اليابان من خلال علاماتها السيميائية المشكلة لثقافتها.

1. مقدمة

ساهم رولان بارت مساهمة فعالة في تجديد النقد الأدبي وأيضا في تحديث السيميائيات وجعلها قادرة على التعامل مع النصوص الإبداعية والأدبية المختلفة برؤية جديدة وبتصورات حديثة وفق ملامسة العلامات المؤسسة لها من منظور تفكيكي لهذه الخيوط ووفق غاية جمالية تحديدا. أهمية المشروع السيميائي البارتي تتجسد أيضا في قدرته على اكتشاف وكشف وتحليل كم كبير من علامات الثقافة الشعبية ليس الغربية فقط بل والثقافة الشعبية الموزعة على عدة بقاع في العالم لتصبح بالتالي في إطار المنهج السيميائي علامات لثقافة شعب ما وتصبح بالتالي سمات أساسية لتوصيف حضارة شعب معين. وهذا المفهوم طبقا للمنهج السيميائي يمكن أيضا الحديث عنه من خلال ارتباطه بشكل أو بآخر بموضوع الدراسات الثقافية التي أصبحت حاليا تأخذ مكانة أساسية في مجال البحث العلمي بفعل العولمة.

*- باحث أكاديمي، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب.

إذن، فهذه الورقة تتناول بالدراسة مشروع بارت السيميائي في مرحلتين هامتين. الأولى تتمثل في تأثره باللسانيات البنيوية والثانية وهي المرحلة ما بعد-البنيوية حيث سيأخذ مشروع بارت توجهها آخر في دراسة العلامات.

وتسعى الورقة إلى الإجابة عن أسئلة البحث التالية:

1. ماهو مفهوم السيميائية؟
2. ماهي سمات ومحددات المشروع البارتي في مجال السيميائية؟
3. كيف تتشكل اليابان سيميائية عند رولان بارت؟

1.2. طريقة المعالجة Methodology :

للإجابة عن أسئلة البحث، توخت الدراسة الاعتماد بشكل أساسي على مؤلفين إثنين لرولان بارت هما:

1 - "مبادئ في علم الأدلة-Eléments de sémiologie" وقد صدر سنة 1965.

2 - "إمبراطورية العلامات L'empire des signes" وقد صدر سنة 1970.

واختيار هذين المؤلفين تحديدا لأتهما يختزلان بشكل واضح مشروع بارت السيميائي الذي يمكن تقسيمه إلى مرحلتين أساسيتين: مرحلة التأثير باللسانيات البنيوية ومرحلة ما بعد البنيوية.

1.3. السيميائية:

يمكن تعريف السيميائية بشكل مختصر جدا بأنها علم العلامات Signes. وبعض الباحثين يترجمون علامة ب: Marque. وفي مقابل "علامة" هناك من يقترح مرادفات أخرى مثل: "الدليل" أو "السمة". رغم أن السيميائية ظهرت كنظرية قائمة بذاتها عند الغرب فإن العرب القدماء سبق ربما أن تكلموا عنها أو تناولوا بعض سماتها بشكل غير مباشر. ويمكن إعطاء القولة التالية للجاحظ مثلا لهذه الفرضية:

"والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته وبهجم على محصوله، كائننا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام. فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع".⁽¹⁾

يقول الأستاذ محمد العمري في هذا الباب بأن الجاحظ "سعى لوضع نظرية للمعرفة استكشافا وتداولاً... ونعى - على طول فصول البيان والتبيين- جانب التأثير والإقناع عن طريق اللفظ والإشارة".⁽²⁾ وقد تحدث الجاحظ بشكل أو بآخر عن العلامة كما في التالي:

"كان شائعاً في الأسلاف المتبوعين أننا نجد رؤساء جميع أهل الملل وأرباب التحل على ذلك ولذلك اتخذوا في الحروب الرايات والأعلام وإنما ذلك كله خرق سود وخمروصفر وبيض وجعلوا اللواء علامة للعقد والعلم في الحرب مرجعاً لصاحب الجولة وقد علموا أنها وإن كانت خرقاً على عصي أن ذلك أهيب في القلوب وأهول في الصدور وأعظم في العيون."⁽³⁾

ستصبح السيمياءيات نظرية علمية مع اللساني فرديناند دوسوسير Ferdinand De Saussure "الذي سيقترح إنشاء علم جديد تحت مسمى "السيمولوجيا" والذي يكون هدفه هو دراسة العلامات وتصبح اللسانيات فرعاً من فروع السيمولوجيا."⁽⁴⁾

بالإضافة إلى دوسوسير سيعتمد آخرون على تطوير السيمياءيات نذكر من بينهم رولان بارت Roland Barthes وشارل بيرس Charles Peirce. العرب أيضاً سيشغلون على المنهج السيميائي في أبحاثهم ودراساتهم العلمية منذ ظهور مجال السيمياءيات. نذكر منهم مثلاً المفكر والأديب عبد الكبير الخطيبي. فبالسيمياءيات اقتحم عبد الكبير الخطيبي الثقافة المهمشة التي لم يكن يلتفت إليها الباحثون والتي تشكل بطبيعة الحال جزءاً لا يتجزأ من التراث المغربي والهوية المغربية. مجالات مثل الأدب الشفوي والرقص والهندسة المعمارية والوشم. انطلاقاً من هذا الاهتمام بالثقافة المهمشة فقد سبر الخطيبي أغوار هذه الثقافة وألوانها المختلفة. وقد اعتبر الخطيبي هذا التوجه شكلاً من أشكال النضال باعتباره مثقفاً بالدرجة الأولى.

ويرى الخطيبي أنه على الرغم من أن السيمياءيات تعتبر في نظر البعض "صورة زائفة Simulacre" للعلم على غرار مختلف العلوم الإنسانية التي لا تصل إلى مستوى العلوم الحقة فإنه وجدها نموذجاً مقبولاً في الفن والفكر معاً."⁽⁵⁾

ويقول سعيد بنكراد في تعريفه للسيمياءيات بأنها:

"في معناها الأكثر بدهة هي تساؤلات حول المعنى. إنها دراسة للسلوك الإنساني باعتباره حالة ثقافية منتجة للمعاني. ففي غياب قصدية - صريحة أو ضمنية - لا يمكن لهذا السلوك أن يكون دالاً، أي مدركاً باعتباره يحيل على معنى. إن هذه القصدية هي أساس كل القضايا المعرفية التي عبرت عن نفسها من خلال مجموعة من المفاهيم الخاصة بالمعنى من حيث الوجود والمادة والتداول والسيرورة. فالوجود الإنساني، باعتباره وجوداً للمعنى وفي المعنى، أنتج مجموعة من المفاهيم المعبرة عن هذا المعنى باعتباره غطاءً سميكا للممارسة الإنسانية."⁽⁶⁾

1.4. مشروع بارت السيميائي البنيوي:

تتجلى الأهمية النقدية للسيمائيات حسب الباحث "بيتر بيريكلس تريفوناس Peter PericlesTrifonas" في كونها تساعد المنظرين على خلق ميتا-لغة Meta-language - لغة أو خطاب نقدي- قادر على تحليل أشكال التمثيلات وبنياتها باعتبارها أجزاء مشفرة داخل منطق النظام.⁽⁷⁾ في هذا الإطار، قام رولان بارت بتطوير المنهج السيمائي بعد استفادته من أعمال فردناند دوسوسير وهلمسليف ورومان ياكوبسون وإميل يبنفنيست. وإلى جانب جان بياجي وكلود ليفي شتراوس، تمكن رولان بارت من خلال مشروعه المتميز من نيل اهتمام عدد كبير من النقاد والمهتمين بمجال السيمائيات من بينهم: جوليا كريستيفا وميشيل فوكو وجاك لا كان وتزفيتان تودوروف وجاك دريدا وجيل دولوز ولويس التوسير وجان فرانسوا ليوتار والخطيبي وغيرهم.

بداية، لا بد من تقسيم المشروع البارتي في مجال السيمائيات إلى قسمين: القسم الأول وهو استفادته من لسانيات فردناند دوسوسير. ورغم تأثره بنظرية دوسوسير حول علاقة اللسانيات بالسيمولوجيا باعتبارها حاضنة لها إلا أن بارت أتى بأطروحة جديدة بخصوص هذه العلاقة. ويقول بارت في هذا الخصوص:

"ورغم التقدم الكبير الذي أحرزته فكرة سوسير تلك فإن علم الأدلة يبحث عن ذاته بتؤدة. وربما كان السبب بسيطاً، فلقد اعتقد سوسير، الذي ردد الدلائليون الرئيسيون أفكاره ونقحوها، أن اللسانيات ليست سوى قسم في علم الأدلة العام، إلا أنه من غير الأكيد قطعاً، أن تكون في الحياة المجتمعية المعاصرة أنظمة أدلة، غير اللغة البشرية، لما لهذه الأخيرة من سعة وأهمية."⁽⁸⁾

لهذا، فبالنسبة لبارت مركزية علم اللغة أساسية ولا يمكن تقزيم أهميتها وشموليتها وأيضاً احتضانها لعدد كبير من المجالات. وبالتالي فإن السيمائيات في نظره تبقى قاصرة على تغطية مجالات كثيرة ودورها محدود في هذا الإطار بالمقارنة مع اللسانيات.

لهذا، فهو يؤكد على أن السيمائيات لا يمكن أن تكون مجالاً مستقلاً بذاته بل هي جزء لا يتجزأ من علم اللغة أو اللسانيات عموماً لأنها في نظر بارت عالم من صور وأشياء وسلوكيات بدلالات كثيرة ولكنها لا يمكنها الانفصال عن اللغة.⁽⁹⁾

ومن أجل تأسيس مشروعه السيمائي، اعتمد رولان بارت على أربعة محاور كبرى استقاها من اللسانيات البنيوية وهي :

اللسان والكلام:

وتحتل هذه الثنائية مكانة أساسية في لسانيات دو سوسير. فاللغة في نظر دو سوسير هي تعاقد جماعة بشرية على مجموعة من القواعد والأنظمة والكلام هو الذي يجسد فعلياً وتطبيقاً هذه الأنظمة وهذه القواعد. وبالتالي فاللغة والكلام عنصران مرتبطان ببعضهما البعض وفي الآن نفسه فهما متميزان عن بعضهما البعض. فالكلام لا يمكن تحقيقه إلا باللغة حيث يقوم باستعمال القواعد التجريدية الموجودة في الدماغ واللغة لا قيمة لها بدون أفراد يستخدمونها. فاللسان كما يقول رولان بارت: "لغة بلا كلام إنه مؤسسة مجتمعية ونظام من القيم في الوقت ذاته وباعتباره مؤسسة مجتمعية فهو ليس فعلاً قط ولا يخضع لأي نية مسبقة إنه القسم المجتمعي من اللغة وليس في مقدور الفرد وحده أن يخلقه أو أن يغيره وهو أساساً عقد جماعي على كل من يرغب في التواصل أن يخضع له كلية." (10) وفي مقابل اللسان يرى بارت أننا نجد: "في مقابل اللسان المؤسسة والنظام نجد الكلام وهو أساساً فعل فردي للاختيار والتحقيق وهو مكون من التركيبات التي تستطيع الذات المتكلمة بفضلها استعمال شفرة اللسان قصد التعبير عن فكرها الخاص." (11)

ولأن بارت يؤمن بقيمة هذه العلاقة الجدلية بين مفهومي اللسان والكلام مادام وجود واحد منهما مرتبطاً بوجود الآخر، فإنه عمل على تطبيقهما على مختلف الظواهر الاجتماعية والثقافية مثل الأزياء والأطعمة والأثاث. ففيما يخص الطعام باعتباره نظاماً دلالياً، يرى بارت أننا نجد فيه هذه الثنائية السوسيرية المتمثلة في اللسان والكلام. فلسان الطعام يشمل "قواعد الإقصاء" أي المحرمات من المأكولات ثم "التعارضات" بين مثلاً مالح وحلو، و"قواعد الجمع والتأليف" على مستوى الأكل أو الوجبة. أما الكلام "الغذائي"، فيرى بارت أنه يتجسد من خلال العادات العائلية في إعداد وتهيين المطبخ وفي اللهجات الشخصية إلخ. وبالتالي، فبارت يرى أن "لائحة الأطعمة" تترجم بشكل واضح هذه الثنائية بين اللسان والكلام لأنها تتأسس وفق بنية وطنية وإقليمية واجتماعية. (12)

2- المدلول والدال:

الدليل في مفهوم دو سوسير يتكون من المدلول والدال. ويرى بارت أن الدليل مصطلح صعب التحديد ومرد هذا الغموض حسب بارت هو:

"تواجهه في معاجم مختلفة (من اللاهوت حتى الطب) ثم بسبب تاريخه الغني (من الإنجيل إلى السيبرنطيقا). لذلك يجب أن نتحدث قليلاً - قبل العودة إلى الفهم السوسيري، عن المجال المفهومي الذي يحتل فيه مكانة هي، فضلاً عن ذلك، وكما سنرى، غير قارة. الواقع أن "الدليل" يندرج حسب

سيمانيات

مشينة الباحثين ضمن سلسلة من المصطلحات المترادفة والمتنافرة: فالمنافسات الرئيسية لدليل هي: إشارة، قرينة، أيقونة، رمز، كتابة تصويرية Allégorie. ولنحدد، أولا العنصر الذي تشترك فيه كل هذه المصطلحات: بحيث تحيل جميعا إلى، وبالضرورة، إلى علاقة بين طرفين، ولكن هذه السمة لا يمكن أن تميز أيا من المصطلحات عن باقي السلسلة.⁽¹³⁾

ويرى بارت أنه من أجل حل هذا الإشكال، لا بد من البحث عن ثنائيات أخرى أو اختلافات في المعنى. ويقترح بالتالي هذه السمات في شكل ثنائية حضور/غياب ووفق مقولات متنوعة: التمثيل والمباشرة والمباشرة والمطابقة والوجودية⁽¹⁴⁾:

- 1 - التمثيل: أن تشمل العلاقة التمثيل النفسي لواحد من الجانبين.
 - 2 - المشابهة: أن تتخلل العلاقة أولا مشابهة بين الجانبين.
 - 3 - المباشرة: أن تكون علاقة مباشرة أو غير مباشرة بين الجانبين.
 - 4 - المطابقة: أي أن يتطابق الجانبان بشكل مطلق أو لا يتطابقا بالمرة.
 - 5 - الوجودية: أن تكون العلاقة حاملة لنسبة وجودية مع الشخص الذي يستخدمها.
- ويؤكد بارت على أن كل مصطلح من المصطلحات السابقة يختلف عن الباقي إما باعتبار هذه السمات إيجابية أو سلبية مضيفا أن اختلاف توزيع المجال من كاتب إلى آخر يؤدي حتما إلى ما يسميه بارت بـ "تناقضات مصطلحية".⁽¹⁵⁾
- ومن أجل تسهيل عملية الإحاطة بهذه التناقضات، يقترح رولان بارت الجدول التالي يلخص فيه تلاقي السمات والمصطلحات عند أربعة مؤلفين هم هيغل، وبرس، ويونغ، وفالون⁽¹⁶⁾:

	إشارة	قرينة	أيقونة	رمز	دليل	كتابة تصويرية
1 - التمثيل	فالون-	فالون-		فالون+	فالون+	
2 - الشبه (المقارنة)			بيرس+	هيغل+ فالون+ بيرس-	هيغل- فالون-	
3 - المباشرة	فالون +	فالون -				
4 - المطابقة				هيغل- يونج- فالون-	هيغل+ يونج+ فالون+	

سيمانيات

5 - الصيغة الوجودية	فالون+ بيرس+	فالون- بيرس+	بيرس- يونج+	يونج-
---------------------	-----------------	-----------------	----------------	-------

وبين هذا الجدول الذي يقترحه رولان بارت أن التناقض على مستوى المصطلح يتأسس حول القرينة التي هي وجودية لدى بيرس بينما العكس لدى فالون. كما أن هذا التناقض يظهر على مستوى الرمز حيث يلتقي هيجل وفالون في رأيهما حول علاقة شبه أو "تحفيز" بين طرفي الرمز بينما العكس عند بيرس. كما أن الرمز غير وجودي بالنسبة لبيرس ووجودي بالنسبة ليونج. هذا ويمكن قراءة هذا الجدول أفقياً أيضاً، الرمز مثلاً شبيهي لدى هيجل والدليل ليس شبيهاً لديه.⁽¹⁷⁾ وعموماً، يؤكد بارت على أن :

"كلمات المجال لا تستمد معانيها إلا من خلال تعارض بعضها مع بعض (وتأتي عادة في شكل أزواج) ومعنى هذا أيضاً أنه إذا ما حوِّط على هذه التعارضات لا يعتور المعنى إبهام، خصوصاً وأن الإشارة والقرينة، والرمز والدليل موظفات تؤدي وظيفتين مختلفتين، قد تتعارضان هما نفسيهما تعارضاً شاملاً كما هو الحال عند فالون ذي المصطلح الأكمل والأوضح، أما الأيقونة والكناية التصويرية فتترنبطان خصوصاً بمعجم بيرس وبيونج. سنتفق إذن مع فالون على أن الإشارة والقرينة زوج أطراف مجرد من كل تمثيل نفسي، في حين أن هذا التمثيل يوجد في الزوج النقيض أي الرمز والدليل، وعلى أن الإشارة تكون، فضلاً عن ذلك، مباشرة ووجودية، في مقابل القرينة التي ليست مباشرة ولا وجودية (لأنها مجرد أثر)، وأخيراً على أن التمثيل شبيهي وغير متطابق في الرمز (فالمسيحية تغمر الصليب وتتجاوزها) في مقابل الدليل، حيث تكون العلاقة غير محفزة ومطابقة (لا شبه بين كلمة ثور وصورة ثور التي يغطيها المترابط معها relatum بكيفية تامة"⁽¹⁸⁾

وإجمالاً، فالدليل بالنسبة لبارت يضم الدال والمدلول. الدال يرمز بالنسبة له إلى العبارة وأما المدلول فهو المحتوى أو المضمون. والدال والمدلول لا يمكن التطرق إليهما أو تحليلهما بشكل منفصل لأنهما متلازمان. كما أن بارت يؤكد أيضاً على أهمية السياق في تحديد وظائف هذه الدلالات بحيث لا قيمة للدلالة دون ربطها بالسياق التي تتحرك من خلاله.

³ المركب والنظام:

اعتمد دوسوسير على هذه الثنائية بشكل كبير في القضايا اللسانية بشكل خاص. ويوضح بارت هذه الحقيقة من خلال قوله أن: "العلاقات التي توحد بين الألفاظ اللسانية يمكن أن تنمو على

صعيدين، يولد كل واحد منهما قيمة الخاصة، ويتلاءم هذا الصعيدين مع شكلين من أشكال النشاط الذهني (سيعود جاكوبسن إلى هذا التعميم بالدرس).⁽¹⁹⁾

ويعرف بارت المركب بأنه:

"تأليف للأدلة يرتكز على مدى، وهذا المدى، في اللغة المتفصلة امتداد سطري ذو بعد واحد لا ينعكس (إنه "السلسلة الكلامية"): لا يمكن النطق بعنصرين دفعة واحدة (شر الخصال القسوة على الضعفاء) تستمد كل لفظة هنا قيمتها من تعارضها مع سابقتها ولاحقاتها، إن الألفاظ في السلسلة الكلامية تتحد، بالفعل، حضوريا، أما النشاط التحليلي الذي ينطبق على المركب فهو التقطيع. الصعيد الثاني: هو صعيد associations تداعي الألفاظ وتجميعها (للحفاظ، أيضا على مصطلح سوسير "خارج الخطاب (أي الصعيد المركبي) تتجمع الوحدات التي تشترك في وجه من أوجهها، في الذاكرة، وتؤلف بذلك فئات تسودها علاقات متنوعة".⁽²⁰⁾

لذا، فإن بارت يؤكد على وجود علاقة بين وحدت الجملة الواحدة بل وأيضا بين الكلمة الواحدة وكل وحدة من هذه الوحدات تساهم بمعنى إضافي في تقابل مع وحدات لغوية أخرى. وفيما يتعلق بالمفردات، فإن العلاقة تتحدد من خلال إدراج مجموعة من الصوامت في أنساق تركيبية عملا بما يحدده النظام الفونولوجي فيما يخص تكوين مفردات اللغة.

أما المحور الثاني للغة فهو النظام الذي يرى بارت بأن سوسير اعتبره:

"سلسلة من حقول التداعي اللفظي، يتحدد بعضها بأصرة الصوت (تدريس-تسليح) وبعضها الآخر بأصرة المعنى (تدريس تعليم). وكل حقل عبارة عن ذخيرة من الألفاظ المحتملة (لأن واحدة منها فقط تتحقق في الخطاب الراهن): ويلج سوسير على كلمة لفظة (التي استبدلها من كلمة، وهي وحدة تدخل ضمن طبيعة المركب) لأنه، كما أوضح سوسير، بمجرد قولنا "لفظة" مكان "كلمة"، تثار فكرة النظام."⁽²¹⁾

والنظام في نظر بارت واستنادا دائما على اللسانيات البنيوية، يرتكز على العلاقات الاستبدالية بين مختلف الوحدات اللغوية التي من الممكن أن تستبدل بعلامة موجودة في الجملة وعلامة أخرى موجودة في الذاكرة وسوسير يطلق على هذا النوع من العلاقة "بالعلاقة الترابطية". وانطلاقا مما سبق، يؤكد بارت على أهمية المركب والنظام باعتبارهما يشكلان صعيدي اللغة كما أن بلوغ المعنى والدلالة يمر عبرهما. وبالتالي، فهو يؤكد على أن دراستهما تحتاج إلى عمق من أجل تحديد واستكشاف الظواهر التي تساهم في تغليب صعيد على آخر.⁽²²⁾

4 - التقرير والإحياء:

انطلاقاً من قوله أن كل نظام دلالي يضم صعيدين اثنين : صعيد العبارة وصعيد المحتوى أو المضمون وأن الدلالة تتحقق من خلال العلاقة التي تربط بينهما، فإن بارت يفترض أن يصبح نظام لهذه العلاقة بين الصعيدين فقط عنصراً في نظام ثان فإنه في هذه الحالة سيكون بتعبيره "توسعا وامتدادا له". وستفرز هذه الحالة الجديدة وجود نظامين يتداخلان ولكن بطريقة منفصلة عن بعضهما البعض. وهذا "الانفصال" يمكن أن يتحقق بطريقتين مختلفتين من خلال مستوى اندماج النظام الأول في الثاني ليصبح بالتالي مجموعتين متعارضتين. وفي الحالة الأولى النظام الأول يصير "صعيداً تعبيرياً ودالاً للنظام الثاني".⁽²³⁾

وهي الحالة التي يسميها هلمسليف بـ "الدلائلية الإيحائية":
"يشكل النظام الأول إذن صعيد التقرير Dénotation ويشكل النظام الثاني (وهو توسع للأول) صعيد الإيحاء. سنقول إذن: إن النظام الموحى Connoté نظام يتكون مستواه التعبيري ذاته من نظام للدلالة، بديهي أن تتألف الحالات الإيحائية العادية من أنظمة معقدة تشكل اللغة المتفصلة نظامها الأول (تلك مثلاً هي حالة الأدب). أما الحالة الثانية للانفصال (المناقضة للأولى) فيصير النظام الأول (ع ق ض) صعيداً مضمونياً أو مدلولاً للنظام الثاني وليس صعيداً تعبيرياً".⁽²⁴⁾

1.5. مشروع بارت السيميائي في مرحلة ما بعد البنيوية:

يمكن اعتبار: "إمبراطورية العلامات L'empire des signes"⁽²⁵⁾ واحداً من المؤلفات التي تمثل مرحلة رولان بارت ما بعد-البنيوية باعتبار أن الاهتمام فيه انتقل من تفسير أنظمة العلامات إلى الرغبة في التخلص من تأثيرها وسلطانها .

بوصفه نصاً، يمثل هذا المؤلف تحولاً واضحاً من استعمال عناصر السيميائيات الشكلية Formal semiology أو المبادئ التوجيهية في اللسانية البنيوية إلى دراسة الظواهر الحقيقية للممارسات الثقافية باعتبارها صوراً ونصوصاً قابلة للقراءة.

يقول الباحث عبد الرحيم كمال:

"إن من يقرأ إمبراطورية العلامات لا بد وأن يتساءل حول "النوع الأدبي" لهذا الكتاب. لنقل مبدئياً إنه عبارة عن "مذكرات سفر" تحكي اللقاء الفكري والجسدي بين الغرب والشرق. لقاء تتبع فيه الناقد خصوصية العقل الشرقي (الياباني)، الشيء الذي سيدفعه إلى التشكيك في "عالمية" القيم والمقاييس والمفاهيم السيميائية الغربية، والكتاب محاولة لتكسير هيمنة السيميائيات الغربية (La sémiocratie occidentale) ومحاولة لتعلم طرائق جديدة للتعامل مع العلامة ومع الإنسان والصورة واللغة. وهذا ما سيؤدي به إلى نوع جديد من المعرفة (السيميائية) لا تقوم حتماً على استخراج دلالة الأشياء، ولا تقوم

حتمًا على ذات مجردة، بل تهتم فقط بالصفة المرئية/الخارجية للشيء وللدال. وتبعًا لهذا المنظور سيقراً بارث "الحكاية-اليابان" على أنها موضوعاً مرئياً أو فرجة (spectacle) يتكون من أيقونات لا دلالة لها سوى موضوعيتها خارج الذات المشاهدة.

بهذه المقاربة سيتحول بارث من سميائي الدلالة (اللغوي التكويني) إلى سميائي اللا دلالة، أو بالأحرى "منع الدلالة"، وسيأخذ الصمت اللغوي (يقصد اللغة الداخلية -المونولوج- ولغة التواصل) مكان المعنى. وهذه المقاربة في حد ذاتها تكسير للفكر السميائي الغربي الذي يبنى في جوهره على البحث عن دلالة الأشياء والعلامات، وعلى فكرة أن ذاتاً مجردة وتاريخية هي التي تمنح الدلالة لهذه الأشياء وهذه العلامات. وهنا يتعلم بارث من الشرق حدود الفكر الغربي، وعي سيدفع به إلى التشكيك في أسس هذا الأخير.⁽²⁶⁾

ما يميز هذا الكتاب هو انتقاده بشكل مباشر الغرب الذي يفسر الظواهر الثقافية دون التخلص من سلطة الإيديولوجيا أما الشرق واليابان تحديداً فالصور مرئية تراها العين بدون حجاب لأنها مكشوفة للجميع ولا تحتاج إلى من يفسرها. وهذا ما يؤكد الباحث عبد الرحيم كمال: "فإذا كان الغرب يحافظ على سيرورة منظومته الإيديولوجية بواسطة الأسطورة، أي بعض العمليات الدلالية التي تعمل على تطبيع التاريخ والثقافة، فإن الشرق يؤمن سيرورة فكره بالتقليص الكبير من تدخل الذات المانحة للدلالة (أي اللغة): فالعلامات موجودة هناك، أمام العين، معروضة في طبيعتها المرئية، ولا شيء وراء سطحية مشهدها. وبعبارة أخرى، [...]، فإن الشرق يأخذ الأشياء وعلاماتها بصفتهما معطيات مرئية محضة. وهذا الاختلاف يقابل -من منظور الباحث في ميدان العلامات- بإجراءين متعارضين: إما أن يُدخل المرء الدلالة كُرها في الشيء المنظور إليه (effraction de sens) وهي طريقة الغرب في تناول العلامات، وإما أن يعفيه من الدلالة (exception de sens) وهو المبدأ الذي ينظم فلسفة "السميائيات الشرقية".⁽²⁷⁾

في إطار اهتمامه بالصورة والثقافة في هذا المؤلف، تناول بارت عدة مواضيع منها أنواع الأكالات اليابانية والتي تحدث عنها بإعجاب متناولا نواحيها الجمالية وثقافة الزن وأيضا شعر الهايكو. هذا الشعر الذي دأب الشعراء اليابانيون منذ مئات السنين على خلق وإبداع أمثلة منه تكون موضوعها الأساسي مرتبطاً بالطبيعة كنوع من التقديس لها أو الافتتان بها. إلا أن بروزه بقوة سيتم خلال القرن السابع عشر مع الشاعر الياباني: ماتسو باشو Bashō Matsuo الذي سيمنح الهايكو دينامية جديدة ورؤية أخرى تتمثل في الاهتمام بعالم الطبيعة باعتبارها مصدراً للتأمل. هناك أيضاً شعراء يابانيون

آخرون ساهموا في تطور هذا النوع من الشعر نذكر من بينهم: كوباياشي إيسو Kobayashi Issa ويوسا ياسون Buson Yosa.

تحدث بارت عن الهايكو باعتباره فنا جماليا بالدرجة الأولى، فهو بالنسبة له يوقظ الرغبة في الكتابة لأنه سهل وبسيط وبعيد عن التعقيد الذي يجنح نحوه الكتاب الغربيون.⁽²⁸⁾ ارتباطا بقيمة الصورة الفوتوغرافية التي يتميز بها شعر الهايكو، يوجه بارت انتقاده للغرب في ولائه الكبير للمعنى الذي يعذب القارئ من أجل الوصول إليه ويكون محتارا بين عدة معاني للنص الواحد. في حين أن الهايكو لا يتطلب مجهودا كبيرا لمثل الصورة لأنها أمامك خالية من كل الصور البلاغية التي لا فائدة منها.⁽²⁹⁾

الرسالة الثقافية أيضا حاضرة في هذا المؤلف وذلك من خلال الصور التي يحتويها مثل صور أشكال الكتابة وصور يابانيين يركعون وصورة طوكيو. هذه كلها سمات ثقافية في سياق تاريخي محدد وتتجسد من خلال صور. هذه الصور لم يحتج فيها بارت إلى شرح مفصل. وقد ابتعد بارت فعلا عن التحليل في هذا المؤلف تحديدا لأن الباعث الأساسي في مقارنته لليابان باعتبارها إمبراطورية للعلامات أو مختبرا للعلامات كما يقول عبد الكبير الخطيبي هو باعث جمالي أساسا. لهذا، نجد بارت لا يقوم بالتنظير كما في أعماله الأولى بل ينتقي الصور ويلبسها لباسا لغويا بسيطا ويتركها ترسل الإشارات بكل تلقائية ممكنة. بالإضافة إلى القبض على العلامات المشكلة لهذا الشرق واليابان تحديدا فإنه خطاب يقيم مقارنة من خلال هذه العلامات بين الشرق والغرب على مستويات عدة وأنساق مختلفة تضم من بين ما تضم الموضة والأكل والكتابة وغيرها وهي ترجمة صريحة لعشق بارت للبساطة والوضوح والصورة الشفافة التي تأتي بدون تكلف منتقدا الغرب بشكل مباشر تارة وبشكل غير مباشر تارة أخرى على اختياره التعقيد والصعوبة في كل المواضيع والكتابة الأدبية ومنها الشعرية. يقول عبد الكبير الخطيبي بأن "إمبراطورية العلامات" مؤلف يتناول الغرب والشرق باعتبارهما هويتين ميتافيزيقيتين واحدة تغلب العقل وأخرى تغلب المقدس.⁽³⁰⁾

خاتمة:

لم يكن مشروع بارت السيميائي ليرز دون الاستفادة من اللسانيات البنيوية عند دوسوسير وهلمسليف وغيرهما لكنه قام بتطويره بعدما اكتسب آليات ومفاهيم اللسانيات البنيوية التي استعملها وقام بتوظيفها في تحليل الأطعمة والألبسة والصورة وغيرها من العلامات. كما أن مشروعه السيميائي سينتقل إلى محطة أخرى تتمثل في إصدار مؤلفه "إمبراطورية العلامات" الذي سيتخلص فيه من سلطة المفاهيم ويقوم باكتشاف العلامات المشكلة لثقافات اليابان بدافع جمالي في الأساس. قرأ مدينة طوكيو باعتبارها علامة والوجوه والحركات والعادات باعتبارها أيضا علامات. ويعتبر بارت "إمبراطورية العلامات" أهم منجز لديه كما جاء على لسان عبد الكبير الخطيبي.⁽³¹⁾ أخيرا، يمكن اعتبار "إمبراطورية العلامات" مؤلفا حاول بارت فيه إعادة كتابة التاريخ الثقافي لليابان من خلال إمبراطورية علاماتها وذلك من خلال وجهة نظر أجنبي ينتمي إلى ثقافة غربية ومن خلال أيضا وجهة نظره الشخصية البعيدة بطبيعة الحال عن كل ما يمت إلى البحث الحال الرصين.

هوامش البحث:

1. الجاحظ، البيان والتبيين، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ج:1، صص:42-43.
2. العمري (محمد)، "الإشارة والسيمه والدليل: الجاحظ عمرو بن بحر"، ضمن: دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد:4، المغرب، فاس، 1990، ص:132.
3. الجاحظ، البيان والتبيين، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ج:1، ص:62.
4. Dubois (Jean) et autres, Dictionnaire de linguistique, Paris, Librairie Larousse, 1973, p.434.
5. Abdelkébir, Khatibi. Le Scribe et son Ombre. Paris : Éditions de La Différence, 2008, p.48.
6. سعيد بنكراد "السيمياءيات: مفاهيمها وتطبيقاتها" منشورات الزمن (سلسلة شرفات)، الدار البيضاء 2003، ص:103.
7. PenclesTrifonas, Peter. (2001). Barthes and the Empire of Signs. Cambridge: Icon Books Ltd, p.
8. رولان بارت، مبادئ في علم الأدلة، ترجمة وتقديم محمد البكري، دار الحوار، ط. 2، 1987، اللاذقية، مدخل، ص:27-28.
9. نفسه، ص:28.
10. نفسه، ص:34.
11. نفسه، ص:35.
12. نفسه، ص. ص. 54-55.
13. نفسه، ص. ص. 61-62.
14. نفسه، ص. ص. 62-63.
15. نفسه، ص:62.
16. نفسه، ص:63.
17. نفسه، ص:64.
18. نفسه، ص. ص. 64-65.
19. نفسه، ص:91.
20. نفسه، ص. ص. 91-92.
21. نفسه، ص:111.
22. نفسه، ص:131.
23. نفسه، ص:135.
24. نفسه، ص. ص. 135-136.
25. Barthes, Roland. (1970). L'Empire des signes. Paris :Skira.
26. عبد الرحيم كمال "الصورة والذات والمعنى"، مجلة علامات، العدد5، 1996، مكناس.
27. نفسه.
28. Roland Barthes. Empire of Signs. Trans. Richard Howard, New York: Hill and Wang, 1982, p.69

سيميائيات

29. ibid.p.70
30. Khatibi, Abdelkébir. (1987.) Figures de l'étranger. Paris: Denoël, p.65.
31. ibid .p. 65